عباس محمود العقاد

الشيوعية والإنسانية

في شريعة الإسلام

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

رسمه « كارل ماركس » وفرغ منـــه قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وقبل أن يتقدم العلم نفسه وراء خطواته الاولى في العصر الحديث .

ولم تكن المسألة عند « كارل ماركس » مسألة تقديرات نظريـــة لا يترتب عليها شيء من العواقب غير تبديل نظريـة بأخرى أو تنقيحها برأي يخالفها ، ولكنها كانت مسألة أرواح ودمـــاء وشعوب وأنظمة واجتراء على الماضي كله بالهدم والانتقاض إيماناً بتلك النظرية التي لا تقبل الشك ولا يستكثر على تحقيقها اهـدار الدماء كالانهار ولا تقويض المعـالم الباقية كأنها من جهود عدو للإنسان وليست من جهود الإنسان في جميع الازمان .

وكان ينبغي للإيمان بتلك النظرية أن تقوم على أسس واضحة مقررة ثبتت في عقل صاحبها وفي سائر العقول ثبوتاً لا شبهة عليه ولا مثنوية فيه . ولكنها في الواقع لم تثبت في ذهنه بتفصيلاتها ولم يفرغ من دراستها في حينها ، وأرجأ التوسع في شرحها الى الجزء الاخير من كتابه ، ثم مات قبل أن يفرغ من ذلك الكتاب .

وعد « كارل ماركس » باشباع القول في مسألة الطبقـــات ومسألة القيمة « الفائضة » من كسب العمل ومسألة التطور بين عصر الانتقال وعصر المجتمع ذي الطبقة الواحدة ، وكل هذه المسائل من صميم القواعد التي يقوم عليها مذهبه العلمي كما يسميه ، ولكنه مـــات ولما يبين للناس حقيقة الطبقة الاجتماعية ، ولا معنى القيمة الفائضة، ولا نظام الحكم بعد انتقاله الى أيدي الطبقة العاملة ، ولا الوسيلة التي يتم بها هذا الانتقال .

مسكين ماركس انه أضعف وأحمق وأقل وأذل من أن يضع تشريعاً أو بالأحرى مذهباً يكفل مصلحة البشر وأن يعلم شيئاً من أسرار الكون أو من غيب المستقبل المجهول وما فعلم ودعا اليه انما هو تضليل وتجهيل

وعلى ضخامة الدعوى التي يدعيها « كارل ماركس » في نبوءاته الابدية ، تكشفت الحقائق في حياته فإذا هي تنقض تلك النبوءات وتدل على نقيض البقية الباقية منها ، فلم يلتفت « كارل ماركس » الى هذه النقائض البينة ، أو التفت اليها ليقذفها ببعض اللعنات ـ غير العلمية ـ التي تعود أن يقذف بها كل ما يخالف تقديره وكل من يخالفه ، ومنها الرجعية والعامية والعقلية السطحية وخدمة رأس المال وخداع السواد والتعلق بالاوهام ، وأشباه هذه المثالب والوصمات .

* * *

ولم تمض سنوات على وفاته حتى تعاظمت هذه النقائض على أتباعه ، ووجدوا أنفسهم أمام تلك الضرورة التي تركها « كارل ماركس » في أوائلها واستطاع أن يتجاهلها ويروغ من طريقها لأنها لم تتعاظم في زمنه حتى تأخذ عليه جميع المنافذ والفجاج ، فتذرع أتباعه بكل ذريعة غير الذرائع العلمية في تمحيص نبوءاته وتقديراته . . وضعوا في أذهانهم ان « كارل ماركس » ينبغي أن يكون على صواب بأي حال ، وأنه اذا تعذر اثبات صوابه بالمعنى الظاهر وجب التماس المعنى الذي يجعله مصيباً على وجه من الوجوه ، وأنه اذا تعذر الفهم الصريح والتأويل الخفي معاً وجب أن يبقى « منقحاً » ولو زال كل أثر من آثار الفكرة ولم يبق منها الا التنقيح المزعوم ، وخيل الى الناس أنهم أمام طائفة من الدراويش يتبركون بخرقة من دثار ضريح مهجور ، ويعنيهم ان يحتفظوا بخيط من تلك الخرقة كيفما كان ، ولا يعنيهم أن يكون الدثار صالحاً للكساء .